عمالقة فى زجاجة

فائزة بجائزة
نادى القصة

بقلم : محمد فكرى مراد

رحت ارقبه وهو يميل مع المنشار بقوة كلما دفعه او جذبه فيمرق فى الخشب محشرجا كوحش مجنون لاتمل انيابه الافتراس ، فتتناثر تحت اسنان سلاحه الرهيب ذرات خشبية دقيقة يتطاير بعضها مع ذرات الهواء ثم يستقر على البنك الطويل الذى يعمل عليه .

وتساءلت بينى وبين نفسي فى عجب ايمكن لمثل هذا الجسد المتين ان يسقط فجأة ودون سبب ، فيتمرغ فى الارض كحيوان مذبوح ، ويصدر عنه خوار كخوار الثور ؟

واخذت اتملى اجزاء جسده ، واسبر غوره بناظرى . كان معتدل القامة . مجعد الشعر قليلا . عيناه عسليتان واسعتان . ووجهه لم يكن نحيلا . وكانت بنيته قوية . وذراعه الاسمر الذى يبدو من كمه المرفوع .. متين . تبرز عضلاته كلما دفع المنشار او سحبه اليه .

وضع المنشار جانبا بعد ان انفلقت قطعة الخشب المثبتة بين فكى المنجلة الى شطرين وصاح بالصبى .

ـ الفارة يابنى .

وكان الغلام كان يتوقع طلبه . فما ان نطقت شفتاه بنصف الكلمة حتى كان قد وضع « الفارة » بين يديه . ثم راح يقلب الفراء بقطعة خشب صغيرة،

وينظم بعض الادوات ، فثمة فارة هنا .. وكماشة هناك . وباقى لوح البلكاش ينقله الى ركن المحل . وعاد يقف مترقبا ينتظر بادرة اشارة من احد العمال حتى يضع مطلبه بين يديه .

ولم تكن تلك الصورة الرهيبة تفارق ذهنى ابدا . فكلما رايت الاسطى سعدان لا يلبث ان يدور بذهنى اعصار عنيف . وتتملكنى دوامة من الحيرة ، لا يخرجنى منها تشاغلى بالنظر الى المارة او معروضات المحل من الدواليب والاسرة، او حتى بالحديث مع بعض العمال .

لم يكن يبدو على الاسطى سعدان الضعف والهزال حتى يمكننى ان اقبله فى هذه الصورة . ولم يكن يبدو من حديثه انه مختل فى قواه العقلية او به مرض . بل على العكس من ذلك . عرفت من احاديثه انه يقوم بواجبه فى الحياة كاملا . ويتحمل مسئولياته تماما . حكى لى ذلك هو بنفسه . واحيانا اخرى كنت التقط من بين احاديثه المتناثرة ما جعلنى

احيط بكثير من جوانب حياته . فلم اجد فيها ابدا ما يشير الى انه انسان مريض .. او ضعيف . وكنت منذ جئت الى هذا المحل لعمل سرير امر عصر كل يوم لاشرف على نوع الخشب ، ودقة الصنع . فيضعون لى مقعدا على عتبة المحل اشرف منه على الشارع . وقد اوصانى صديقى الذى قدمنى لهذا المحل بالاسطى سعدان. قال لى : دع الاسطى سعدان يصنع سريرك لانه ادق صانع فى الورشة . وداعب الاسطى سعدان قائلا : خد بالك من إلبيه احسن ده عزيز علينا .. فلم يتمالك الاسطى سعدان ان قال بصوت هادىء وابتسامة مهذبة : من عينيى الاثنين .

هذا رأيت الاسطى سعدان لاول مرة . وقد ارتحت اليه ، ارتحت الى هدوئه فى الكلام والى اخلاقه وخاسه بعد أن زادت معرفتى به وازدادت بيننا الالفة .

كان صورة مناقضة لزميله الاسطى على باخلاقه الغجرية ، وعباراته المفضوحة . وكانت اخلاق كل منهما تنعكس على مظهره وصنعته . فبينما كان الاسطى على يعود الى بيته بعد انتهاء العمل بقميصه وبنطلونه الملطخين بالغراء وبالقبقاب ، كان الاسطى سعدان يغتسل جيداويغير ملابس العمل بملابس نظيفة رغم قدمها ، وحذاء مرتق .وبينما كان الاسطى على يصنع كل شيء بلا دقة ولا اهتمام . كان الاسطى سعدان يولى عمله عناية كبيرة . مما جعله محبوبا من العملاء . وجعل صاحب المحل لا يستطيع أن يفرط فيه لأى سبب .

والتقط الاسطى سعدان قطعة الخشب بعد أن مسحها بالفارة . ونظر الى قائلا :

ـ شايف يابيه .. حاجة مظبوطة عشان خاطر عيونك . وخشب زان نمرة واحد .

مقلت :

ـ تعيش ياالسطى سعدان .. ده عشمنا فيك .

والقى قطعة الخشب جانبا . والتقط القطعة الاخرى يمسحها « بفارته »وكنت فى تلك اللحظة قد انشغلت عنه بمشاهدة ساقى امراة جميلة تمر امام المحل .وما كدت اسحب ناظرى من على جسدها حتى التقت عيناى بعينى الاسطى سعدان .. كان يختلس النظر الى المراة وعندما احس أننى رايته .. سحب ناظريه مسرعا . واطرق .. وتشاغل عنى بقطعة الخشب ، وحرص على الا تلتقى عيناه بعينى .

وكان الاسطى على قد خرج من داخل المحل ، ووقف على عتبة الباب يتتبع المراة بناظريه ويصيح وهو يصفق بيديه : ياحلاوة .. ياحلاوة .. ياسلام ياجدعان . والتفت الى كمن يتساءل : بيعملوهم فين دول يابيه .. ثم التفت صائحا بسعدان كمن ضبطه متلبسا :

ـ عينك يانمس ..

فنظر اليه سعدان مستنكرا ، وقال محذرا وهو يشير له بيده :

ـ ياجدع انت بلاش كلام فارغ .

فنظر على نحوى مستنجدا ، وقال :

ـ أنا باستغرب الجدع ده عايش ليه .. سيما .. يقول بيضحكوا علينا

بالله . حتى جنينة ما يقعدش يشم فيها شوية هوا .. دى النسوان زينة الحياة الدنيا ...

ونظر اليه سعدان وام يتحدث . تعثرت الكلمات على لسانه . واخذت فتحتا انفه تضيقان وتنفرجان . ثم صاح فجأة :

ـ يعنى ما بتشوفهمش .. ما بتشوفهمش فى شارع فؤاد وسليمان باشا بيبقوا عاملين ازاى .. واخذ يردد النظر بيننا مكملا ـ محبكين الفساتين على جسمهم خالص .. والا رجليهم الـ ... العريانة . ودراعتهم .. و .. و .. حاجة تخلى الواحد ...

ولم يجد كلمة يتم بها حديثه ، فصاح :

ـ ياهوه ...

وابتسم على ابتسامة خفيفة حينما وجد ثغرة ينفذ منها الى الاسطى سعدان ، وسأله :

ـ وانت ايه اللى بيوديك شارع فؤاد وسليمان باشا ياسطى سعدن .. ؟

ونظر اليه سعدان كمن ضبط متلبسا بالجريمة . ثم قال :

ـ اهو ساعات الواحد ياخدها مشى وهو مروح .

فمال على الاسطى على وهمس :

ـ اصله مقرم اوى . تصور اكلنا كله نمول وطعمية ويوم ما اقول له تعالى نتشارك فى نص كباب .. يقول لى ياشيخ .. اهو اللى بياكل كباب بيشبع واللى بياكل طعمية بيشبع .

فقال :

ـ ماتصدقوش يابيه اذا كان بيقولك انى بروح شارع فؤاد مخصوص عشان اتفرج على النسوان .. حاكم هو دايما كده يحب يقرفنى .

فقلت :

ـ وافرض بتروح مخصوص ..

فاردف :

ـ اعوذ بالله . هم دول وراهم الا المتاعب .

ـ متاعب ايه ياسطى سعدان ..؟ انت شفت من متاعبهم حاجة ؟

ـ شفت كتير

قالها على عجل كما لو كان له خبرة دهر بالنساء . ثم اردف :

ـ تصور يابيه .. اخويا .. اخويا الكبير يسيبنا عشان مره .. كان عايش معانا فى نفس البيت .. ابونا مشلول ولينا اختين على وش جواز ، واخ صغير فى المدرسة .. يقوم يروح هو يحب واحدة ويجوزها ، ويسيبنى فى البيت لوحدى .

فقلت محاولا ان اشجعه :

ـ معلهش ياسطى سعدان .. انت ادها وادود .

ـ وشرفك يابيه ما مخليهم عاوزين حاجة . انا راجل جدع اعرف الواجب .. يوميتى اربعين صاغ بصرفها عليهم .

وانتهى سعدان من مسح قطعة الخشب . وصاح بصبيه أن يحضر الغراء . وجرى الغلام مسرعا الى وعاء

الغراء فحمله من فوق الموقد . واقترب من سعدان الذى امسك بفرشة الغراء. ومال على الوعاء ...

وعادت الصـــورة المزعجة التى لم تفارق ذهنى تعصـــف به من جديد . صورة سعدان وهو يميل على الوعاء . ويسقط فوقه على الارض . فينســكب الغراء ، ويتمرغ فيه ســعدان كحيوان مذبوح وهو يصدر خوارا كخوار الثور.

هكذا وصفه لى صديقى حينما احضرنى الى المحل . قال : مسكين سعدان .. ولد كويس وابن حـــلال .. لكن ما عرفش ايه اللى صابيه .. تبص تلقاه فجأة راح واقع على الارض..واشنج وبقى زى حتة لخشب.ويطلع صوت.. أعوذ بالله .. زى صوت التور المذبوح.

وكنت ارقب سعدان دائما ، واعجب ان يحدث ذلك لمثل هذا الجسد المتين ، حتى شاهدت ذلك بنفسي . ولا ادرى السبب فيما حدث . فقد كنا نتحـدث حديثا عاديا . وكان الاســطى على يداعبه باحدى عباراته . قال : ايه رايك نتشارك فى نص كباب النهـاردة على العشا .. ونروح السيما بعد ماتخلص شغل ...؟ زقطط ياأخى يوم كده وبطل الحنبلة بتاعتك دى ...

وابتسمت انا، ونظرت نحو سعدان. ولكنه اسهم فجـأة . وبرقت عيناه . واتسعت فتحتا انفه وضاقتا . وتلوت شفتاه كما لو كان يريد ان يقول كلاما يعصي عليه . ثم شهق شهقة متقطعة وسقط على الارض يخور كثور مذبوح

ومنذ تلك اللحظة وهذه الصـــورة لم تفارق خيالى . حيث وقفت مشدوها التمس بناظرى انسانا يفعل اى شيء .

وخرج الاســطى على من داخل المحل وفى يده بصلة ، هشمها بالشاكوش ، واخذ يشممها له ، ويربت على وجهه ، ويدلك راحتيه . وبدا لى حينذاك ان العـــالم قد توقف عن الحركة .. حتى رايته يفيق قليلا قليلا ، وينظر الينا كأنه قادم من عالم بعيد .

وضع الاسطى سعدان الفرشة فى وعاء الغراء ، وراح يغـــرى قطعـــة الخشب . فانشغل بها عما حوله .حتى جاءه صوت الاسطى على معاتبا وهـــو مقدم من الداخل .

ـــ ماتروح تجوز بقى ياأخى بدل ما انت طول النهار عينك على النسوان .

والقى ســـعدان الفرشة وقطعـــة الخشب من يده على البنك ، وتمتم بينه وبين نفسه .

ثم صاح غاضبا :

ـــ لا اله الا الله .. انت ياجـدع انت مش حتبطل تقريفنى ..

ورايت ان اخفف قليلا من غضـــبه فقلت :

ـــ طب وزعـــلان ليه ياســـطى سعدان .. هو الجواز وحش .. ؟

فنظر الى لحظة ثم ابتسم ، وسالنى :

ـــ لازم حضرتك مجوز ؟

ـــ انا مش مجوز لانى بصرف على عيلة زى حـــالاتك . لكن مابكرهش الستات زيك .. بحبهم .

وتفرس ســـعدان فى وجهى كأنه يحاول ان يقرا معنى طرأ له . ثـم قال :

وتلاتين سنة ..

وفاجأنى قول سعدان . كنت بين حين وآخر افكر فى عمرى الذى يضيع. وامد لنفسي عاما بعد آخر ، فيستطيع عقلى ان يكيف نفسه ويجد من المبررات ما يخفف وقع الحقيقة . ولكن سعدان وضع يدى على الحقيقة مرة واحدة فاحسست بشبه دوار . واخذت تطن فى راسي الكلمات التى راحت تنطلق من فم سعدان :

ـ وتقول ايه فى اخويا اللى اجوز ولا سألش فى حد .. والنبى حضرتك لو جدع تعمل زيه .. ده حرام .. والنبى ده حرام . والبنى آدم عمره يضيع يوم ورا يوم .. لحد ما يبص يلقى نفسه عنده خمسين سنة .. و .. و ..

ولاحظت فتحتى انفه تضيقان وتنفرجان ، وشفتيه تتلويان ، وشهق شهقة خفيفة توقعت بعدها ان يسقط على الارض . وبدا لى كانه زجاجة صغيرة فى داخلها اشياء كالعمالقة لا تتسع لها . وخيل الى انه قد تهشم وانهار على الارض. ونظرت الى الارض فلم اجده . وجاءتنى كلماته وهو منتصب بجوار البنك . وكانت رعشة قد اصابتنى . وانتابنى شعور يدعو للغثيان ..

ـ تلاقك عشت حياتك كلها محروم.. محروم من بنت تعرفها لتصرف عليها ترش .. محروم من اكلة نضيفة .. بتاع النظاجة .. محروم منه .. وانت ذنبك ايه .. ؟ ذنبك ايه انت .. ؟ اذا كان اخوك الكبير راح اجوز .. هو انت مسئول عن الخلق دى .. والا.. والا ... انا عارف بقى مين اللى مسئول ..

وسكت سعدان وهو يتنفس فى راحة وهدوء . وبدا كأنه قادم من عالم بعيد . تماما كما يبدو حينما يفيق من احدى نوباته . ولاحظ اعيائى ووجومى فاقترب منى متعجبا ، ولم اكن قد افقت تماما ، ونظر الى لحظة ثم صاح :

ـ الله .. مالك يابيه .. ؟ الاستاذ بينه حيغمى عليه .

وجاء صوت على المفضوح ـ حتى فى جده ـ من الداخل :

ـ اكسر له بصلة ؟

فقلت :

ـ لا ياجماعة .. متشكر .. الحكاية مش حكاية بصلة .

وبدت المناظر تتضح امامى . ورغم الصور المهزوزة التى بدت تحت عينى ، رايت سعدان مازال منتصبا بقامته . ودهشت.. لماذا لم يقع سعدان ويتمرغ على الارض ، ويخور كالثور المذبوح..؟ ولكن الذى اثار دهشتى اكثر اننى لم اشكو لسعدان عن شيء من ذلك ... كما اننى ليس لى اخ اكبر .